الإبداع وقضية الحرية

د . مبارك ربيع

١ ـ في مفهوم الابداع

يقصد بالإبداع إنتاج شيء ما، يتميز بالجدة في الشكل أو المضمون أو هما معاً. وبعناصر جديدة أو قديمة جزئياً أو كلياً.

والواقع أن الجدة الكلية للعناصر التي تكوّن الإنتاج الإبداعي متعذرة إن لم تكن حالة مستحيلة. وهذه الواقعة من شأنها أن تجعلنا نستحضر دائماً في معالجتنا لمشاكل الإبداع مقولة التطور والتقدم، بالمعنى الذي يجعل اللاحق من المراحل يستفيد من السابق ويتجاوزه، دون أن يعني ذلك بالضرورة مجرد تراكم كمي أو حركة ميكانيكية تقف عند حدود التأثر أو التأثير بل تعني بالأساس التبادل والتفاعل، وهو تبادل وتفاعل خلاق، إبداعي، أو مبدع، دون أية إحالة هنا على المفهوم البرجسوني للتطور الخلاق، بل المقصود ما يخالف ذلك المفهوم الروحاني الميتافيزيقي المفرغ من كل محتوى واقعي أو مادي.

ومن جهة إضافية فإن واقعة اتسام الإبداع بالجدة النسبية في العناصر الإنتاجية، يبعد بنا عن الميتافيزيقي والغيبي في تحديد هذا المفهوم. ذلك أن تصور الإبداع مرتبطاً ضرورة بعناصر جديدة كل الجدة، أو جديدة جدة مطلقة يقودنا إلى مواجهة الإبداع خلقاً من عدم، وهذا يجرنا لا إلى التعامل بمفاهيم ميتافيزيقية فحسب، بل إلى صلب المتافيزيقا مضموناً ومنهجاً، وموضوعاً، على نحو ما عرفه الفكر الإنساني لدى عديد من الفلاسفة عموماً والمتكلمين والمتصوفة وغيرهم.

هكذا نتقدَّم بعض الشيء في رسم حدود ما نتحدَّث عنه من مفهوم للإبداع باعتباره إنتاجاً إنسانياً أي مشروطاً بالشرط الإنساني، أو جملة الشروط من فسلجية، ونفسية، واجتماعية بالمعنى العام دون أن يتنافى ذلك مع كونه جدة وتجاوزاً.

إن سمة الجدة (وقد تصبح حداثة في مستوى آخر) تجعلنا نميز بين الإنتاج الابداعي كحد بين الانتاج المكرر، النسخة، وبين الخلق المطلق للإنتاج. وهذا الموقع يجعل العمل الإبداعي في مستوى الإثارة بالنسبة للطرف المتلقي، ويسمح بتمرير الخطاب المطلوب.

إن النظريات السيكولوجية الفردية الخالصة والاجتماعية الخالصة كذلك، على اختلاف ما بينها، عندما تقف كل منها عند حدودها، لا تستطيع أن تقدم موقفاً مقنعاً يتيح فهم طبيعة العملية الإبداعية سواء في وظيفتها أو في تفاعل عناصرها ومكوناتها والعوامل المتداخلة فيها.

فكما أن الوعي الفردي ليس جزيرة معزولة مغلقة على ذاتها، فإنه كذلك لا يمكن أن يكون (مونادا) مادياً أو روحياً يعكس الكون من حوله، وبالتالي فليس الوعي الفردي وحده أو الجمعي وحده هو ما

يفسر طبيعة الإبداع، فالإبداع الأدبي والفني ليس مجرد انعكاس للضمير أو الوعي الجمعي[1]، ولا مجرد تسجيل للواقع كيفما كان بل هو تركيب وبناء، وتشكيل لعالم مختلف وجديد بالنسبة لما هو فردي أو جمعي، وذاتي أو موضوعي واقعي، دون انتفاء بالضرورة للمشابهة والمقاربة. وعلى المستوى التحليلي بالذات، ومن منظور آخر تتيح المقاربة والمشابهة، تداخل أنماط الوعي بين المرسل الباث، والمرسل إليه. فيتفاعل المتلقي مع الإنتاج الإبداعي على مستوى الإلهام والطموح والوعي بالذات وتجاوز الإحباطات والقيود الآنية، الموضوعية والذاتية، المادية والمعنوية.

هذا التوجه في الفهم والتحليل تؤيده أبحاث ودراسات علمية متعددة.. منها افتراض أن العمل الإبداعي فرصة لترميم الصدع الحاصل بين «الانا» و«النحن»[2] أي بين الذات والغير، بين الوعي الفردي والوعي الجمعي.. ومنها افتراض عتبة توتر إبداعي تقع في مجال ما بين درجة عليا وأخرى دنيا ينتفي عندهما الإبداع[3]. إذ مع التوتر العالي من جهة والتراخي من جهة ثانية، يحل التخشب والاحتراف أو إعادة الإنتاج.

وكما يتجلى الإبداع عملية أو عمليات محكومة بالظروف الإنسانية في مكوناتها ووظيفتها، فإنه يتجلى كذلك في أدواته ووسائله، ويبقى التميز في كيفية التصرف والاستخدام لهذه الوسائل والأدوات، بما يجعلها في إنتاجها تخرج من مستوى العادي والمألوف والمبتذل والمتكرّر إلى مستوى الجميل والمدهش والعجيب والفريد من نوعه!

٢ ـ في مفهوم الحرية:

أما الحرية فمفهوم يفتح مبدئياً باب المتافزيقا على مصراعيه بل هي المعين الأصيل لكل تفلسف.. فالحرية تعني حالة من يأتي فعله أو سلوكه بعيداً عن كل ضغط، أو إكراه، أو تأثير خارجي، أو بالأحرى أجنبي عن ذاته بما يعني مطابقة الفعل للذات، أي صدور الفعل عن إرادة حرة مستقلة[4]. وهنا نجد أنفسنا أمام ما وجدناه عند مواجهة مفهوم الإبداع وإطلاقه. فحالة الحرية تبدو من هذا المنظور تجرداً عن الأسباب والغايات، وتحتمل التجرد حتى عما هو ذاتي أو داخلي منها، بالإضافة إلى ما هو خارجي.

ومن الواضح أن مثل هذه الحرية أو هذا التصور بالأحرى، ليس في مستوى النسبي والواقعي، والإنساني بصفة خاصة، لذلك نصرف النظر عن تحليله من هذا المستوى.

إننا إذا اعتبرنا ارتباط لفظ الحرية بلفظ قضية في العنوان، فإننا قد نجد قيداً ربما يحدد المسار، باعتبار أن ما يكون قضية يستلزم درجة من الحدة والمحسوسية والواقعية، فتصبح قضية الحرية أقرب إلى التحديد.

هنا ترتبط الحرية أيضاً بالانسان وظروفه وشروط وجوده، كفرد وجماعة ومجتمع، وكوحدة كونية أو مجموعة وحدات أيضاً.

والإنسان محكوم عليه بحياة المجتمع. وفي هذا النمط من الحياة والتواجد مع الغير، يصعب الحديث عن حرية مطلقة بالنسبة للأسباب والغايات على اطلاقها، البعيدة والقريبة، الفردية والجمعية، الداخلية والخارجية، بل يصبح الحديث عن الحرية في هذا المستوى ذاته ولو أمكن، مرتبطاً بميادين مختلفة كالأخلاق والمحاكمة والحكم والإرادة.. وقد يمتد الاختلاف والتحديد تبعاً لذلك، إلى التمييز بين حرية على مستوى النية والقصد، وحرية على مستوى الفعل والسلوك.. لكننا إذا ربطنا مفهوم الحرية بالإنسان وظروفه وشروط حياته اليومية، فسنكون أمام حرية اجتماعية وسياسية واقتصادية...[5] وهنا قد يكون استخدام كلمة تحرر مناسباً، أو إن إستعمال لفظ حرية يقصد به واقعياً مضمون التحرر.

وهنا يتجه محتوى كل من التحرر والحرية إلى حق حرية وواجبها، حرية التعبير، والرأي، والتنقل، والاتصال، والاجتماع؛ وما يرتبط بكل ذلك من حريات اجتماعية وسياسية فردية وجمعية، أي جملة ما أصبحت تحدده وثائق حقوق الإنسان منذ ١٧٨٩.

إن هذا التصور للحرية كحق إنساني إذ يخرج بنا عن متاهات التجريد والمتافزيقا يفترض التالي:

ـ الحرية قيمة من حيث أنها حق، وبالتالي فقيمة الإنسان من حيث هو كذلك، مرتبطة بمدى حريته، ووعيه بقيمها.

ـ الحرية تتطلب كل ضروب النضال التي يتطلبها أي حق من حقوق الإنسان كحق الشغل والتعليم وغيرها...

ـ ارتباط الحرية بالمسؤولية، سواء للحفاظ عليها كقيمة أو في العمل من أجل تحقيقها واقعياً.

هذه الارتباطات المتعلقة بالحرية كحق متحقق في ظروف محددة اجتماعياً، وبصفة موضوعية، تفرض مفهوم الواجب والحد. فهي بطبيعة الحال ليست مطلقة ما دمنا نعمل لتجنب ما هو متافزيقي ومثالي. هنا تبرز صعوبات إضافية في تحديد مفهوم الحرية، بتحديد الحد الذي يحق أن نقف عنده، ولا نتعداه، لأنها إذ ذاك لن تصبح حرية. هنا يتدخل مفهوم القانون أو القوانين المنظمة للمجتمع فتكون حدود الحرية من الناحية الصورية هي حدود ما يرسمه القانون. ولكن أي قانون؟ وما مصدره؟ وما الضمانة على أنه بالفعل قانون الحرية أو قانون للحرية؟ ومتى يكون كذلك؟

---

(١) L.GOLDMANN . LA CREATION CULTURELLE DANS LA SOCIETE MODERNE . P.P 61 - 62, DONOEL; 1971.

(٢) فرضية أساسية في دراسة:
د . مصطفى يوسف، الأسس النفسية للإبداع الفني..
أنظر ص 122- 154 دار المعارف، القاهرة 1970.

(٣) د . سلوى سامي الملا، الإبداع النفسي، ص 153، دار المعارف، القاهرة، 1972.

(٤) V.LALANDE, VOC...

(٥) نفس المرجع.

لا يسمح المجال بالإجابة عن هذه الأسئلة، لا خشية الاطناب فحسب، ولكن خشية الضياع بعدما رسمناه من توجه واقعي للحرية والحريات. يكفي أن نقول إن الحرية، حسب التصور الذي قدّمناه تتنافى مع كل انتهاك لها، كما تتنافى واقعياً مع سوء استغلالها والتصرف بها، والذي يجعلها مساساً بحرية الآخر، سواء كان فرداً أو جماعة. لكن، ومرة أخرى ما الحد بين الحرية وفائضها إن صح هذا التعبير؟ من البدهي أن مبدأ الجواب عن كل الأسئلة الشائكة السابقة يتمثل في أن كل حد للحرية مهما كانت طبيعته، يجب أن يكون نتاج الحرية أيضاً. فما ترتضيه الجماعة أو المجتمع بحرية ارادته، وبإراداته الحرة، هو ما يصلح حداً أو قانوناً للحرية. بحيث لا يحدّ الحرية إلا الحرية ذاتها.

٣ ـ في العلاقة بين الابداع والحرية:

وهكذا تصبح الحرية حقاً مرتبطة بواقع الإنسان الفرد في حياته اليومية، وقيمة صميمية في وجوده محصنة بالارادة الحرة لجماعته ومجتمعه.

إذا توصلنا إلى هذا التصور فما العلاقة بين الابداع والحرية؟

من الواضح أننا في المستوى المثالي والمتافزيقي نكاد نجد تطابقاً بين المفهومين. فالإبداع بالمعنى المطلق من شيء، أو من عدم هو الحرية المطلقة، أو أحد تجلياتها بإعتبار أن هذا المستوى من الحرية لا يحد بشيء أو زمان أو مكان. لكننا حاولنا دائماً التخلص من هذا المستوى، وبناء تصوراتنا على ما هو واقعي مجسد.

هكذا توصّلنا إلى أن الإبداع إنتاج إنساني أي فعل إنساني يتميّز بالجدّة بواسطة عناصر جديدة أو قديمة جزئياً أو كلياً. وهذا ما يجعل العمل الإبداعي محكوماً بالشرط الإنساني مع اتسامه بالإثارة للجمالية والدهشة والإعجاب..

العلاقة بين الإبداع وقضية الحرية تبدو واقعياً فيما يمثلانه من بعد عميق للذاتية والشخصية الفردية والجمعية. فانتفاء الإبداع عن الإنسان ـ لو أمكن تصوره كانتفاء الحرية، يترتب عليه انحطاط قيمة الإنسان في الإنسان. ويمكن في هذه الحال الحديث عن حرية الإنسان، كما نتحدث عن حرية سائر المخلوقات والكائنات حيها وجامدها، كما يمكن الحديث عن إبداع في هذه الحال أيضاً بمثل ما نتحدث عن «تطور خلاق» غامض مهما كان مثالياً أو روحانياً، أو حتى عن نظرية للتطور لا تقل غموضاً في دلالتها على الحرية، وسواء هنا أو هناك فلا يمكن الحديث عن إبداع وعن حرية حقيقيين مع انتفاء الوعي، والمسؤولية، والذاتية الفردية الجماعية.

ويبدو الارتباط الواقعي الطبيعي بين الابداع وقضية الحرية، في اعتبار الإبداع الأدبي والفني تجاوزاً، ومن ثم فهو ثورة مهما كانت درجتها، ثورة على السائد والمألوف والمبتذل.

(٦) يونسكو، معجم العلوم الاجتماعية، الهيئة المصرية للكتاب 1975.

والجدة الإبداعية، ثورة، قد تكون شاملة كلية أو محدودة جزئية، قد تتناول الشكل أو المضمون بصفة جذرية أو طفيفة، على نحو عمقي عمودي أو أفقي امتدادي فالتجاوز والجدة، وبالتالي إبداع غير المألوف وخلقه، يؤدي إلى إثارة المقاومة من قبل الذوق المألوف، والجمالية السائدة، والقيم والمحنطة والجماعة المتخشبة، والسلطة القامعة.. وذلك حسب القطاع الذي يهتز بفعل الجدة.. التجاوز.. الثورة..

من يحتضن هذه الثورة الإبداعية؟ إنها الحرية. والحرية أكثر من حاضن للجدة والثورة الإبداعية، إنما جوهر الفعل الإبداعي. ولا يمكن للثورة الإبداعية أن تستكين إلا مؤقتاً أو ظاهرياً، وإلا استحالت إلى عادي ومألوف ومبتذل. هنا نلمس لحظة التوهج التي يلتقي فيها الإبداع بالحرية.. وهي ما يعبر عنه واقعياً بقضية الديمقراطية. فالحرية المنشودة للإبداع هي أكبر قدر ممكن من الحقوق لأكبر قدر ممكن من الناس.

إن العملية الابداعية باعتبارها تجاوزاً، تجعل الإنسان لا يقف من الكون، والمجتمع خاصة موقف التكيف، أي أنه لا يعيش في مستوى البعد الواحد كما يقول ماركوز. والعمل على تشكيل الكون والمجتمع خاصة، تشكيلاً جديداً بإيجاد أساليب جديدة في التعبير عنه، وخلف أشكال مختلفة من ذلك إنما هو رفض لهذا المجتمع وتجاوز له وثورة عليه[٧]، حتى على مستوى الشكل الإبداعي، على أنها ثورة ورفض قد تتجلى إبداعياً، في صيغ أخرى تتعلق بالموضوعات والأشكال والأساليب والمضامين..

وإذا كنا لا نجادل في أن الحرية والديمقراطية تمثل البيئة الصالحة للإبداع، فلا يمكن أن نستنتج بطريقة آلية أن انتفاء الحرية والديمقراطية يمثل بالضرورة وعلى نحو قطعي انتفاء الإبداع.. فالإبداع ألف طريقة للتجلي والتعبير، وكلما ازداد تعمقاً في الإبداعية.. زادت قدرته على ذلك.. وفي هذه الحال فإن الإبداع يخوض معركة الحرية، وهو لا يتم فحسب على مستوى الرمز والإيحاء والأشكال والأساليب المعبرة عن رفض المنافي للحرية ممثلاً للسلطة كيفما كانت طبيعتها، بل إنه يتم كذلك على مستوى الحث والتحريض على التعبير وتأسيس الحرية والديمقراطية، بتقديم الموضوع والمضمون المناسب... وهذه الوظيفة المضمونية التحريضية مع ذلك لا نراها تكتسي قيمتها من دورها ومحتواها بالذات، بقدر ما تكتسيه من قيمتها كإبداع وذلك حتى نبقى في مستوى الاسبقية الإبداعية للإبداع، والقيمة الإبداعية للإبداع أولاً وأخيراً.. باعتباره جدة، وتجاوزاً، وثورة باستمرار، مع الحرية والديمقراطية وفي ظلها ومن أجلها.

(٧) L. GOLDMANN, Ibid...